حسين محمد بافقيه *

الثقافة الحديثة في مكة المكرمة

(الصفحات ١٨٧- ٢١٢)

ملخّص

مكة تكيفت ثقافيًا وعلميًا مع حركة التاريخ، بسبب تفاعلها الشديد مع المسلمين الوافدين عليها من كلّ فجّ عميق.

كما كانت هذه المدينة المقدسة عامل توازن سياسي في ساحة العالم الإسلامي أيام القلاقل السياسية التي شهدتها مراكزالخلافة. ومع أن الأجواء فيها تكاد تكون علمية روحية بحتة لكنها كانت تقضّ مضاجع المستعمرين لما كانت تتضمنه تلك الأجواء من معنويات تجعل المسلمين يستشعرون العزّة والكرامة وإباء الضيم، كما كان لها التأثيرفي نشرالعلم والمدارس على صعيد العالم الإسلامي. وكان التطورالكبيرالذي حدث في مكة تأسيس أول مطبعة سنة ١٢٩٧هـ. ثم جاء الدستورالعثماني ليكون بداية عهد دخول الثقافة الحديثة إلى البلد الحرام.

كان لموقع مكة المكرمة الديني أثرفي جعل هذه المدينة قبلة للعلماء والأدباء والمثقفين، كما هي قبلة للمسلمين، وهيأت لها هذه المكانة أن تضيف إلى تجربتها

---

* - باحث يمني.

التاريخية دورًا جديدًا، أسهم في تحديد هويتها الجديدة، بصفتها مهبط الوحي،ومولد الرسالة، والبيت الذي يحج إليه من استطاع من المسلمين سبيلًا، واستطاعت مكة المكرمة أن تبرزهذا البعد الديني والروحي الجديد، وأن يستجيب أبناؤها إلى تلك التحولات التي أسهمت في صياغة صورة رمزية لمكة المكرمة وأبنائها على مرالتاريخ.

ويلفت الانتباه في تاريخ مكة المكرمة تلك المرونة والقابلية للتكيف مع حركة التاريخ،وما يستجد عليها من أحداث، على ذلك النحو الذي استطاع من خلاله المكيون أن يحولوا واديهم المجدب إلى أن يكون مركزًا أساسيًا للتجارة العابرة في العالم القديم، وأن تنعكس المرونة الذهنية في سيطرتهم على ما يمكن أن يخدش صورة بلدتهم المقدسة، أوأن يحيلها إلى أجواء متأثرة بالمنازعات الدينية أوالاقتصادية أوالاجتماعية، كما في سيطرتهم، وهم القوم التجار، على أن تحدث ثورة اجتماعية لا يمكن أن يدرك أحد مداها لولم يخففوا من غلواء التفاوت الطبقي الحاد الذي عاشته مكة المكرمة في جاهليتها، ومقاومة نفرمن الوجوه المكية لهذا الحادث الذي يمكن أن يعكرعلى البلدة المقدسة هدوءها وسكينتها،بأن وضعوا نهاية للفقرالحاد، بأن أسهموا لفقراء مكة في تجارة الإيلاف،ليكون لكل مكي سهمه في تلك التجارة التي تذرع اليمن شتاء،والشام صيفًا.

وحين دخلت مكة المكرمة بأجمعها في الإسلام، بعد صراع عقائدي وسياسي شديد، لم تشأ مكة لنفسها أن تغدو كبعض الجهات في الجزيرة العربية، التي تمردت على الخليفة الجديد، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أوارتدت

عن الدين نفسه،فآثرت مكة المكرمة التي دخلت في الإسلام، بأخرة، أن تعض عليه بالنواجذ، وأن تهيئ نفسها، أو على الأقل أن يهيئ أبناؤها أنفسهم لمهام سياسية وقيادية قادمة، كان أبرزها أن آلت الخلافة إلى مكة وأبنائها حتى لو كانت العاصمة السياسية للدولة الإسلامية هي المدينة المنورة.

ولم يحل انتقال الخلافة الراشدة إلى الكوفة، ومن بعدها تحول الخلافة، مع الأمويين،إلى ملك عضوض، دون أن تتكيف مكة المكرمة والمكيون مع تلك المرحلة السياسية التي أريد لها أن يفرغ أبناؤها للترف وللعلم، فأسهم أهلها من كليهما، وكرع شبابها من نبعهما، وكما عرفت أطرافها ألوانًا من الترف والظرف الحجازي اللطيف، فقد عرفت حصياتها أضربًا من التعمق في الدين وعلومه، فكان لأبنائها القيادة الدينية التي تحددت ملامحها في بروزمدرسة فقهية مكية، تتمتع بغيرقليل من المرونة الفكرية، أسهمت في صياغة المدونة الفقهية التي بدأت بعبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) ومن تبعه من تلاميذه وحوارييه كمجاهد بن جبر وطاووس بن كيسان وسعيد بن جبيروسليمان بن يساروعكرمة مولى ابن عباس، ثم سفيان بن عيينة وسلم بن خالد وعمرو بن ديناروعبدالله بن جريج وعبدالله بن أبي نجيح[1] إلى أن تبرزملامح هله الدرسة الفقهية المكية على يد محمد بن إدريس الشافعي (صاحب المذهب الشهير) وأن يستمرعطاء مكة المكرمة في تحولها،وقد خبا إشعاعها السياسي،مع قدوم العباسيين، إلى مركزمن مراكزالعلوم العربية والإسلامية التي لا تخطئها العين حين تجيل بصرها في كتب التاريخ والطبقات والتراجم والسِيَر، لتجد أن مكة المكرمة غدت، بأبنائها وبمن قصدها من علماء الحجاج وأدبائهم، ومن آثرأن يجاور بيتها العتيق، مقصدًا مهمًا لا يكتمل علم العلماء إلا بزيارته، «وكان العلماء في العصورالأولى يقصدونها من

مختلف أقطار العالم الإسلامي ليؤدوا ركنًا من أركان دينهم أداؤه فرض، وليضيفوا إلى ذلك أمورًا من أهمها التزود بزاد العلم والمعرفة، فالعالم يفد إليها من أقصى المشرق أو المغرب **فليتقي بعالم آخر من بلاد بعيدة عن بلاده فيحصل من هذا الالتقاء تقارب وتفاهم، واستزادة علم، وامتداد لروافد المعرفة، وانتشار للأفكار بين مختلف الأقطار الإسلامية..**»[٢].

ولعل ذلك أكسب مكة المكرمة مرونة في تحديد هوية من ينتسب إليها، سواء أكان من أهلها أو من جاور فيها من العلماء والأدباء، الذين يؤلفون ظاهرة جديرة بالتأمل والنظر، كما في البخاري صاحب *الجامع الصحيح*، وجار الله الزمخشري صاحب *الكشاف*، والفيروزبادي صاحب *القاموس* والجويني ـ إمام الحرمين ـ والصغاني اللغوي الشهير، والذهبي صاحب *تاريخ الإسلام*، وابن هشام الأنصاري النحوي، والسبكي صاحب *عروس الأفراح في شرح المفتاح*، والسخاوي صاحب *الضوء اللامع*، وغيرهم من العلماء والأدباء الذين كانوا يجدون في مكة المكرمة وموسمها العظيم في الحج فرصة للقاء طائفة من علماء الأمة الذين لا تسنح لهم الفرصة للقاء والدرس والاجتماع في سوى مكة المكرمة، على ذلك النحو الذي تصوره كتب الرحلة الى الحج، التي قلّما خلت،وفي أي عصر من عصور القوة أو الضعف، من إشارة إلى علماء مكة المكرمة أو من وفد إليها، حاجًا أو مجاورًا، وتغدو أروقة البيت العتيق محل نظر وتفتيش وحصول على الإجازات في مختلف العلوم العربية والإسلامية[٣].

وليس من شك في أن للتقلبات السياسية التي حدثت في مراكز الخلافة الإسلامية في بغداد والقاهرة، وضعف السلطة السياسية أثرًا في ندرة توثيق جهود

علماء مكة المكرمة وأدبائها، فلم يحفظ لنا التاريخ سوى إشارات محدودة لبعض علمائها وأدبائها الذين ظلوا إلى جوار البيت العتيق، في حين أن عددًا آخر من علمائها وأدبائها صُنّفوا في عداد أقاليم أخرى بسبب الهجرة إليها، أو التلمذة لعلمائها، أو الوفاة فيها،مع أن هناك نفرًا من علماء مكة المكرمة بروزوا في بعض العلوم العربية والإسلامية، وبخاصة الفقه والأصول والتفسير والحديث والنحو واللغة والتاريخ والتراجم، ويكفي للتدليل على ذلك الإلماح إلى محب الدين الطبري (٦١٥- ٦٩٤ هـ)، الذي كان من أكابر علماء الحديث، وعبدالملك العصامي (٩٧٨-١٩٣٧هـ)،التي أربت مؤلفاته على الستين، ولقّب بخاتمة المحققين[٤]، وابن علان الصديقي (٩٩٦-١٠٥٧هـ)[٥]، فضلًا عن الأسر المكية التي اشتهرت طائفة من أبنائها بوراثة العلم كابرًا عن كابر، كالطبريين، والنويريين، وآل ظهيرة، وآل فهد[٦].

وأدت القلاقل السياسية التي شهدتها مراكز الخلافة في أن تتحول مكة المكرمة إلى عامل توازن في الكفة السياسية، فغدت محل شد وجذب بين الخلافة في بغداد والقاهرة[٧]،ومن ثم بعض المراكز السياسية الإقليمية في الجزيرة العربية، وعلى الأخص اليمن، وكان نصيب مكة المكرمة وأبنائها من ذلك التجاذب السياسي ذي الأبعاد الرمزية الدينية، أن أغدق عليها الخلفاء والملوك والولاة الذين يخطبون ودها، بالمال والصلات والأوقاف والجرايات التي لا يكاد يخلو تاريخ من تواريخ مكة المكرمة في العصور المتأخرة من الإشارة إليها، وانتظار المكيين والمجاورين لتلك الهدايا والصدقات التي تشمل أمراءها وولاتها وأعيانها وعامتها[٨]، ليسهم ذلك في تفريغ هذه المدينة من دورها السياسي، اكتفاء بمكانتها الدينية التي نص القرآن الكريم عليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ

وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران/٩٦)، وهذا ما أكد، على طول التاريخ الإسلامي، صورتها النمطية تلك، مركزًا مهمًا للعلوم العربية والإسلامية، وأن يجعل بُعدها عن التقلبات السياسية الكبرى لكي يخلص طائفة من أبنائها للعلم والبحث والتأليف والتدريس، وأن يحتفظ موسم الحج إلى بيتها العتيق بإشعاعه الدافئ الموحي لعدد من علماء الأمة ورجال السياسة فيها،بعدد من التحولات في بلدانهم،وبخاصة بعد أن أحكم الاستعمار الأوروبي هيمنته على معظم أجزاء العالم الإسلامي، **وظلت مكة المكرمة وحرمها الآمن وعلماؤها المقنتون العاكفون على العبادة والتدريس والتأليف محل قلق بعض الحكومات الاستعمارية التي أقضّ مضجعها أن يرجع بعض أبناء الدول الاستعمارية إلى بلادهم، وقد حملوا بين جوانحهم روح الجهاد والنضال، دون أن ينبس علماء مكة المكرمة ببنت شفة في السياسة أوغيرها، ولكن هذا ما أوحاه إليهم حرمها الآمن وموسمها الأكبر**[٩].

والذي يتأمّل في تاريخ مكة المكرمة في القرون الخالية، وحتى مشارف القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)،يدرك التأثير الديني للحرم الشريف في الموضوعات العلمية والفكرية التي توفّر عليها علماؤها،وهي في مجملها حصيلة العلوم الإنسانية وما يخدمها من علوم الآلة كاللغة والنحو والمنطق، و إن لم يعنِ ذلك خلوّ تلك الأجواء من اشتغال بالعلوم الطبيعية والتطبيقية[١٠]، إضافة إلى الطب والصيدلة، وكان لبعض الدراسات العلمية فيها ملامح ومناهج، وبخاصة التاريخ باتجاهاته ومذاهبه، والذي كان للمكيين،منذ قرون، معالم واضحة في تأصيله، بدءا بالأزرقي ومرورًا بالفاكهي والطبري والعصامي ودحلان، وحتى الغازي المكي

المتوفّى في منتصف القرن الهجري الماضي[١١]، والدراسات النحوية واللغوية التي لم يخل قرن من القرون دون اشتغال المكيين فيها،فضلًا عن الدراسات الدينية في الفقه وأصوله والتفسيروالحدث وعلم الكلام والتصوف، سواء في الحرم الشريف أو في مدارسها وأربطتها، وبذهنية علمية منفتحة على الآخر، لا تميل إلى التشدد أو المذهبية[١٢]، وكأن ذلك بعض فيوض مكة المكرمة وتعددها السكاني، الذي آل إلى تعدد مذهبي وثقافي، أكسب أهلها، وبخاصة علماءَها مرونة يصعب وجوها في مراكزدينية وثقافية أخرى.

وتشيرالتواريخ المكية إلى أن النشاط العلمي والتأليفي في مكة المكرمة حافظ على قوته ونمائه، عبرالقرون الماضية، وحفلت حصيات الحرم الشريف وأروقته بحلقات العلماء، في الفقه والفرائض والحديث والتفسيروالغة والنحو، التي كانت تلك الحلقات العلمية من أظهرملامح الحرم الشريف التي لا يكاد يخلو منها آناء الليل وأطراف النهار، حتى أنها بلغت نحو مئة حلقة، في صورة تاريخية مثّلها علماء مكة وحرمها، طوال قرون خلت،وظلت ماكثة إلى ما قبل عقود قليلة من الزمان، كان الحرم الشريف فيها ـ فيما يقول هرخرونيه ـ جامعة يتخرج فيها الطلاب والعلماء من مختلف أقطارالعالم الإسلامي، ليمتد الأثرالعلمي والروحي لمكة المكرمة وعلمائها إلى تلك البلدان، سواء من خلال تلمذة عدد من قادتها وعلمائها وأبنائها لعلماء الحرم،أو من خلال الرحلات العلمية التي قام بها نفرمن علماء مكة إلى تلك البلدان، **لنشرالعلم وتأسيس المدارس والمعاهد والمؤسسات الإسلامية، لعل من أبرزها مدارس نهضة العلماء بإندونيسيا. التي كانت نواة لأكثرمن أربعمائة مدرسة ومعهد عال**[١٣].

ويبدوأن خروج مكة المكرمة من الخريطة السياسية، ومحاولة المراكز

السياسية المتصارعة على كرسي الخلافة كسب ولاءها، والدعاء للخليفة من على منبرها فيخطب الجمعة والعيدين، أسهم في تفريغها من العمل السياسي، وقصرها على أن تكون بيئة للعبادة والدعاء للخلفاء والسلاطين،وبلدًا آمنًا يقصده الفارون بدينهم وبأرواحهم إليه، في أثناء الفورات السياسية والدموية، ليحلها كل ذلك إلى مدينة لا تريد،ولا يريد لها الآخرون أن تشترك في الشأن العام، وبخاصة السياسي * ، ما أثرفي الإنتاج التأليفي لعلمائها، وألقت قدسيتها ومكانتها الدينية ظلالها على ما يلقى فيها من دروس لا تبرح في غالب الأحيان الأنماط التقليدية لشروط الأداء والتلقي في العلوم الإسلامية، على ذلك النحو التي تصوره كتب الطبقات والتراجم وفهارس الرجال.

واستمرالعطاء العلمي والثقافي لمكة المكرمة وعلمائها على منوال واحد في الدرس والتأليف والتدريس، وحفلت المكتبات المكية بعدد وافرمن مؤلفات علماء مكة والمجاورين فيها، في حركة دؤوبة نشطة لم يخل منها قرن من القرون المتأخرة، وكان لتلك المؤلفات دورفي المحافظة على الروح التقليدية في التأليف والبحث، كما في المتون والشروح والحواشي والتهميشات، وكان يقصد منها،في الغالب،أن تكون دروسًا تعليمية يتيحها علماء الحرم والمدارس والزوايا لمن قصدهم من الطلاب والحجاج والمعتمرين، وأكدت تلك المؤلفات والرسائل، على مدار قرون، مكانة علماء مكة وحرمها، و إحاطتهم بألوان من التبجيل والاحترام،وهيأت لإنتاجهم العلمي أن يروج في مختلف بلدان العالم الإسلامي[١٤]،

* - يقصد الكاتب بكلمة السياسي: الصراع من أجل السلطة، أما السياسة بمفهومها الإسلامي، وهي رعاية شؤون الأمة، فهي من صميم الدراسات الإسلامية كلها بمكة وغيرها.ولذلك كانت مكة كما قال الكاتب آنفًا تقضّ مضاجع المستعمرين (ثقافتنا).

على الأخص جزرالهند الشرقية، وغرب إفريقيا. ويلاحظ على الخصائص الموضوعية لتلك المؤلفات وفاؤها لمناسك الحج والعمرة، حيث حظيت هاتان الشعيرتان بطائفة ضخمة من المؤلفات والرسائل والمتون، التي استجابت للمعنى الديني والاقتصادي الذي ربط علماء الحرم بآلاف الحجاج والعمار، وفي حياة علمية ربطت أولئك العلماء بسمات خلقية ونأت بهم عن أن يشغلوا أنفسهم بغير العبادة والتدريس والتأليف، وأضفت عليهم صورًا من حياة العلماء الربانيين الزاهدين بما في أيدي الناس.

ولم تقف حركة التأليف والنشرفي مكة المكرمة عند حدود الوراقة التي كانت رائجة في أماكن مختلفة فيها، كمنطقة باب السلام التي تعود شهرتها «إلى قرون تسبق دخول الطباعة إلى مكة المكرمة، فقد كان موقعًا للوراقين والنساخ وكتاب شهادات الحج والزيارة للمعتمرين والحجاج»[١٥]، ليفيد علماؤها مما تتيحه الطباعة التي راجت في غيرموقع من العالم الإسلامي،في نشرمؤلفاتهم التي ظلت وفيّه لوضع التأليف والبحث في العصورالإسلامية المتأخرة، وكان أول عالم مكي يقوم بطباعة مؤلفاته هو محمد بن عمرأبي عبدالمعطي النووي الجاوي، الذي قام بطباعة مؤلفه *فتح المجيب بشرح مختصرالخطيب* في مطبعة بولاق الشهيرة بالقاهرة، عام ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م، وأحمد بن محمد بن رمضان أبي الفوزالمرزوقي الحسيني، الذي قام بطباعة عدد من مؤلفاته في مطبعة شاهين بالقاهرة عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م،ونشرأحمد زيني دحلان ومحمد سعيد بابصيل وأبو بكرشطا وآخرون عددًا من مؤلفاتهم في مصروالهند وأندونيسيا[١٦].

كان عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م عامًا مفصليًا في تاريخ مكة المكرمة ـ والحجاز عامة ـ حيث كان هذا العام بما يمثله من عتبة تربط نهاية القرن الثالث عشر،

بمطلع القرن الرابع عشرالهجريين فاتحة عدد من التحولات الثقافية والسياسية التي ستترك أثرها العميق في مكة المكرمة ونخبها الثقافية. وترجع أهمية هذا العام إلى **تأسيس أول مطبعة في الحجاز**، وهي الثانية من نوعها في الجزيرة العربية بعد مطبعة الولاية التي تأسست في صنعاء عام ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م، والتي كانت إحدى ثماروالي مكة المكرمة عثمان نوري باشا، الذي تميزت ولايته بإدخال عدد من الإصلاحات على الحجاز. غيرأن المطبعة الميرية، و إن أسهمت في جعل مؤلفات العلماء المكيين متوافرة، فإنها ـ كما يبدو من القوائم الطباعية لها ـ لم تخرج المؤلفات المكية عن وضعها السابق، الذي لما يزل ـ حينذاك ـ يدورفي فلك الأوضاع الثقافية والفكرية للعصورالإسلامية المتأخرة[١٧]، ويغلب على منشورات هذه المطبعة استيعابها لضرورات فقهية تتعلق بمناسك الحج والعمرة، إذ إن ما نشرته من كتب التراث كان قليلًا، مقارنة بالرسائل والمتون التي كانت «تستعمل في حلقات الدرس التي تعقد في الحرمين الشريفين»[١٨]، منسجمة مع الطبيعة السكانية لمكة المكرمة، حيث شملت مؤلفاتها، إضافة إلى اللغة العربية، التركيبة والجاوية والملايوية والأردية[١٩]،ووفية للموضوعات الدينية النسكية التي كان لها المقام الأول في قائمة مطبوعاتها[٢٠].

وعلى الرغم من أن حركة الطباعة في مكة المكرمة لم تضف موضوعات حديثة إلى قائمة الموضوعات التي يتطرق إليها علماء مكة المكرمة ـ فإن حركة الطباعة تنامت في السنوات الأخيرة مع الوجود التركي في مكة المكرمة، حيث أسهم المجتمع الأهلي في تدعيم ركائزالطباعة والنشر، فكانت مطبعة الترقي الماجدية، لصاحبها محمد ماجد الكردي المكي ذات أثرإيجابي في إشعارالنخب

الثقافية التقليدية بأهمية الطباعة، بل و إشعار المجتمع المكي، عامة، بأهمية الطباعة، حيث جاء في الإعلان عن هذه المطبعة التي تم إيصالها إلى مكة المكرمة على ظهور الجمال[٢١]، أنها تهدف إلى خدمة العلم الشريف، والوقوف على مؤلفات علماء الحرمين، والطلب إلى أبناء الوطن التقدم إلى صناعة الطباعة[٢٢]، ولم تضف هذه المطبعة ، طوال العهدين التركي والهاشمي، موضوعات حديثة إلى قوائمها الطباعية، بل غلبت عليها الموضوعات الفقهية والنسكية ذات الصلة بالحج والعمرة، و«لم ينل الإنتاج الأدبي أو التاريخ الحديث شيئًا من عنايتها»[٢٣]،وهذا أمر طبيعي وقد خلا النشاط العلمي من جوانب تختلف عما يوائم الطبيعة الدينية لمكة المكرمة، وكأنه ليس من نشاط هذه المدينة ـ آنذاك ـ خارج هذه الحدود الدينية العملية، فكان من السائغ أن تروج في هاتين المطبعتين «كتب المناسك والأدعية والفتاوى الشرعية..تليها في الأهمية كتب النحو والتجويد والتصوف،ثم متفرقات قليلة في التاريخ والحديث والبلاغة والأدب»[٢٤].

ويبدو أن لانشغال المكيين بخدمة الحجاج والعمار دورًا في انصراف علماء مكة المكرمة، في تلك الأثناء، عن الثقافة الجديدة التي كانت قد أطلت برأسها في غير موقع من العالم الإسلامي، والتي باتت مشغولة بأسئلة جديدة تتصل بالهوية والعلاقة بالآخر، وكان الصراع بين القديم الذي يمثله التراث العربي والإسلامي والحديث الذي يمثله الوافد الغربي مشتعلًا بين النخب الثقافية في مصر والشرق العربي، وكان ذلك حصيلة قرون من حرص السلطة السياسية المركزية سواء كانت عباسية أو فاطمية أو عثمانية، على تفريغ المجتمع المكي من بوادر التحولات السياسية والثقافية والاجتماعية، وأرسخوا في وجدان المكيين أن مدينتهم لا ينبغي لها سوى أن تدعو للخليفة السخي بدوام النصر والتأييد، ولم يكن الدور العثماني

سوى مرحلة من إضفاء الشرعية على سلاطين آل عثمان، الذين أغدقوا على الحجازوأهله،وقد ترك ذلك ـ فيما يقول المؤرخ المكي المعاصرأحمد السباعي بلهجة متألمة «شعرالناس في الحرمين أنهم باتوا يعيشون في كنف آل عثمان ويجدون من برّهم ما يغنيهم عن العمل الجاد في في سبيل الحياة،فاستكانوا لهذا الظل الوارف وتوطنت نفوسهم على احترام العلاقة التي تربطهم بآل عثمان والرضا بتبعيتهم للدولة وباتوا في أكثرالمدن لا يهتمون إلا بتلقين أولادهم حب السلاطين من آل عثمان والدعاء لهم بالعزوالتمكين»[٢٥].

ولا يمكن إغفال أن للأتراك العثمانيين يدًا في إدخال ألوان من الإصلاح الإداري والتعليمي والصحي على مكة المكرمة، حيث أسس العثمانيون،قبل إعلان الدستور، المدرسة الرشدية التي كانت فاتحة المدارس الحديثة في مكة المكرمة، غيرأنها لم تكن لتستجيب إلاّ إلى مطالب الفئات التركية أو التي لها مصالح معها، فكان التدريس فيها باللغة التركية، حتى قواعد اللغة العربية كانت تشرح بالتركية، ولهذا لم يقبل عليها سوى الأتراك أو من له صلة بهم، أما أبناء مكة والمجاورون فلم يلتحقوا بها[٢٦]، كما أدخل الوالي التركي عثمان باشا عددًا من الإصلاحات في الإدارة المحلية، حيث أسس دارًا للحكومة ونقطة للشرطة، ودارًا للصحة، ومستشفى، ومطبعة للحكومة [٢٧]، لكن المجتمع المكي كان بحاجة إلى تحولات حقيقية تشعره بانتمائه إلى عصرمغايرللعصورالسابقة.

كان إعلان الدستورالعثماني عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م فاتحة تحولات أسهمت في إدخال الثقافة الحديثة إلى مكة المكرمة، وبث وعيًا سياسيًا جديدًا في أوصال النخب الثقافية المكية، حيث ارتبط دخول الصحافة إلى مكة المكرمة، إلى العام

الـذي أعلـن فيـه الدسـتور(١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)، فكانـت أولى الصـحف الحجازيـة «حجاز»، بنسختيها التركية والعربية ـ تعبيرًا عن المصالح التركية في هذه المنطقة البالغة الأهمية في العالم الإسلامي، وهي و إن لم تسهم في إصلاح لغة الكتابة، فإنها كانت علامة على تحولات عميقة، من شأنها إدخال مكة المكرمة، والحجازعامة، إلى ملامح أكثرعصرية واقترابًا من الهم السياسي والإداري، فضلًا عما يمكن أن تحدثه الصحافة من منافذ مغايرة لطرق الاتصال الثقافي التقليدية،وتتجلى المكانة المهمة للصحافة، في تلك المرحلة،أن شهدت مكة المكرمة، وفي نحوعام واحد (١٩٠٨ـ١٩٠٩م)، مولد ست صحف[٢٨].

وكان إعلان الدستورمخيبًا لآمال العرب التي تحمس عدد من نخبهم السياسية له،حين لم يقم وزنًا لوجودهم ولغتهم، في حين كان الدستورفرصة لتكريس الوجود التركي واللغة التركية في الولايات العثمانية، التي كان من بينها الحجاز. حيث افتتح حزب الاتحاد والترقي فرعًا له في مكة المكرمة، ليس له من همٍّ سوى بثّ الدعاية لأفكار الدستوريين، عبرصحيفته الرسمية «حجاز»، وفرض اللغة التركية على لغة دواوين الدولة، وما تبع ذلك من إحداث ظلم اجتماع بحث الطبقات الدنيا،حيث أدى فرض رجال الدستورضريبة على دفن الموتى لتصرف على إصلاح القبور، إلى اشتغال ثورة جماعية من صميم الشارع المكي،وهي ما تسمى،تاريخيًا ،بـ«**ثورة القبوري**»،التي قادها شيخ القبوريين في مكة المكرمة الذي التف حوله عدد من الناس وأعلنوا الجهاد في سبيل الله على الخليفة العثماني، والثورة على الأتراك، وأدى اشتباكهم مع الدرك إلى قتل نفرمن الفريقين وجرحهم[٢٩]،**وكانت ثورة القبوري إيذانًا بأن تحولات عميقة طرأت على المجتمع المكي، أخرجته عن سكينته وهدوئه، وجعلته أكثر اتصالًا بمفاهيم**

سياسية واجتماعية وثقافية مغايرة لما كانت عليه الأوضاع منذ قرون متطاولة.

وكما شهد العالم ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م إعلان الدستور العثماني، وولادة الصحافة في مكة المكرمة، فإن هذا العام قد شهد ـ كذلك ـ حدثًا سياسيًا محليًا من شأنه أن يسرّع من وتيرة تسلل المفاهيم الحديثة في السياسة والثقافة إلى مكة المكرمة. حيث قاد تباطؤ شريف مكة علي بن عبدالله في إعلان الدستور الى عزله من منصبه، وتولية الشريف عبدالله بن محمد بن عون بدلًا منه، الذي مات قبل أن يلي مهامه. إلى أن يتقلد الشريف حسين بن علي إمارة مكة المكرمة، الذي سعى، منذ وصوله إلى الحجاز، الى أن يحافظ على الاستقلال التقليدي لولايته عن الدولة العثمانية(٣٠)، وسعى إلى تقليص مهام الوالي التركي المعين من السلطنة(٣١)، بل وفرض سلطته على مناطق مختلفة من الجزيرة العربية(٣٢)، وبات من الواضح أن الشريف حسين يؤمن بما تنادي به الحركة الإصلاحية العربية، من أن تكون أداة الحكم في الدولة العثمانية «لا مركزية»(٣٣)، وكان موقفه المتصلب من الهيمنة التركية والخضوع للدستور سببًا في توجيه الأنظار إليه، و إلى مكة المكرمة والحجاز عامة، الذي غدا مقصدًا لعدد من السياسيين والثوار العرب الذين أسهموا في بلورة مشروع الثورة العربية الكبرى * التي انطلقت رصاصتها الأولى من بطحاء مكة المكرمة، في عام ١٣٤٤هـ/ ١٩١٦م، معلنة الثورة على الأتراك، وداعية إلى استقلال أقاليم المشرق العربي عن السلطنة العثمانية، واستعادة العرب حقوقهم التاريخية والثقافية والسياسية وقيادة أمورهم بأنفسهم.

كانت الثورة العربية الكبرى بالنسبة الى مكة المكرمة، حدًا فاصلًا بين

* - إنه مشروع بريطاني أُريد منه جرّ العرب إلى حرب ضد الخلافة العثمانية، ونجحوا في ذلك، بينما عاد العرب بخفي حنين، بعد أن سقطت الدولة العثمانية، وتمزّق العالم العربي شرّ ممزّق. (ثقافتنا).

زمنين: زمن الركون إلى الدعة والسكينة، والانصراف عما يجري من أحداث، وزمن تحول هذه المدينة إلى أن تمسك زمام المبادرة والدعوة إلى استقلال العرب ونهوضهم، وأن تصبح محط أنظار النخب السياسية والثقافية الوطنية في مواقع مختلفة من الوطن العربي. والمهم ـ مكيًا وحجازيًا ـ شعور أبناء هذه المنطقة بأن التاريخ قد آثر إلا أن يعود إليهم، فكان هذا الحدث التاريخي المهم عاملًا في إحداث عدد من المفاهيم الجديدة في الوطن والدولة والأمة، لم تكن ذات رواج في المدونة الثقافية في مكة المكرمة، قبل ذلك[٣٤].

أسهمت الثورة العربية الكبرى في تحويل الحجاز من ولاية تتبع السلطنة العثمانية، إلى أن يغدو دولة مستقلة، مسَّها بعض المضامين الإصلاحية الجديدة، التي لا تكون الدولة دولة إلا بها، كهيئة الوكلاء (مجلس الوزراء)، ومجلس الشيوخ[٣٥]. وتعريف لغة الإدارة المحلية، وتأسيس عدد من المدارس العربية الحديثة، ووكالة المعارف، وصحيفته الرسمية «القبلة» التي ساعدت على إخصاب الوعي السياسي والثقافي في مكة المكرمة ومدن الحجاز الأخرى، من خلال موضوعاتها السجالية التي يتعاور عليها عدد من المفكرين والشعراء والسياسيين العرب كالشاعر العروبي فؤاد الخطيب، ومحب الدين الخطيب، إضافة الى المقالات والقصائد الشعرية التي آثربها نفر من شعراء المشرق العربي والمهجر الأمريكي صحيفةَ «القبلة»، وعبر مضامين جديدة على النخب الثقافية في مكة المكرمة، خاصة أنها تروّج للقيم القومية التي طالما صدح بها عدد من الإصلاحيين العرب في بلاد الشام والعراق، وأدخلت هذه اللغة الثقافية التي بثت في «القبلة» ملامح فكرية مختلفة، كليًا، عن أنماط الثقافة التي ربي عليها علماء هذه المدينة ومثقفوها منذ قرن وقرون.

وعلى الرغم من أن الفلسفة السياسية للثورة العربية الكبرى لم تسع إلى إحداث قطيعة بين الدين والسياسة، كما توضح ذلك مجموعة من وثائقها، فإنّ مما يسترعي الانتباه اتكاء لغتها السياسية على مضامين مدنية، في محاولة لتوسيع دائرة استقطابها، خارج حدود الجزيرة العربية، خاصة أن عددًا من دعاة استقلال العرب ونهوضهم ليسوا مسلمين، وكانت كلمة الشريف حسين التي نشرتها «القبلة»: «نحن عرب قبل أن نكون مسلمين»[٣٦]! بمنزلة إحداث تحول جديد في صورة مكة المكرمة بالنسبة الى الوطن العربي، خاصة أن هذه الكلمة كانت «القبلة» قد نشرتها في عدد من أعدادها، والتي أكدها، بعد ذلك، في رسالته الى أبناء سورية التي جاء فيها «وأني إذا ذكرت أبناء سورية فلاأفرق بين أحد منهم بمذهب أو غيره، بل كلهم في نظري سواء، لأن وحدة القومية هي جامعة التفاهم وتبادل المصالح. وطالما قلت إن العرب عرب قبل أن يكونوا مسلمين أو مسيحيين أو موسويين.. فإذا كان أحد قد أساء فهم هذه الحقيقة أو تفهمها فيكون قد أساء.. إلى العرب الذين أثبت تاريخهم أن اختلاف الدين لا يمكن أن يكون سببًا لهضم حق أو لحطّ من كرامة أو لغير ذلك من مطالب الحياة الاجتماعية الهنيئة»[٣٧].

لم تحدث المضامين السياسية والثقافية للثورة العربية الكبرى أثرًا في النخب الثقافية التقليدية في مكة المكرمة، إذ تشير قوائم الكتب الخاصة بالمطبعة الميرية ومطبعة الترقي الماجدية، المنشورة في ذلك العهد، أن لا اختلاف مطلقًا طرأ على الموضوعات العلمية والبحثية لتلك النخب، فمازالت الموضوعات القديمة، من فقه ومناسك ولغة، هي السائدة[٣٨]، في حين استطاعت الثورة أن تجذّر لمضامينها

الجديدة في الشارع الشعبي المكي الذي التف حولها، وأسهم في اشتعالها أولاد الحارة وطلاب المدارس الذين طعموا لبانها على مقاعد الدرس.

«شاعت في هذه المدارس روح النهضة وحماسها. وكان تلامذتها يقابلون الحسين في أعياده الرسمية، واحتفالاتهم المدرسية فيستمع إلى خطبهم ويناقش كلماتهم»[٣٩]، واستطاعت الآلة الإعلامية والمؤسسة التربوية للثورة أن تصنع جيلها الملتف حولها، والمؤمن بغاياتها السياسية والثقافية، قوامه مجموعة من شبان مكة المكرمة وجدة والطائف الذين رأوا فيها ما يحقق صعودهم التاريخي، خاصة أنهم الجيل الأول الذي ربي على مفاهيمها وفلسفتها السياسية والتعليمية، التي ربطتهم بعدد من الأفكارالحديثة في السياسة والثقافة والأدب، ووجهتهم توجيهًا قوميًا خالصًا، كان من بواعثه دحرالوجود التركي واللغة التركية من دواوين الحكومة ومؤسساتها التربوية، و إحلال اللغة العربية محلها».

وكان لإدخال درس اللغة العربية ضمن برامج التعليم أثر كبيرفي توجيه النشء توجيهًا صحيحًا.ورأى هذا النشء لونًا جديدًا من الكلام لا عهد لهم به وتفتحت لهم آفاق واسعة من الأفكاروالآراء ما كانت لتجيش بخواطرهم»[٤٠].

وبدا أن الثقافة الحديثة وما يتصل بها من أدب وفكرأخذت تستهوي الأجيال الجديدة، في ذلك العهد، وفي تطورنوعي لم تعهده مكة المكرمة وما جاورها من مدن، حيث كانت القيمة العلمية والمكانة الاجتماعية تقترن بانتساب نخب المتعلمين إلى العلوم الدينية التي تتفق مع الطبيعة الدينية لمكة المكرمة وارتباط معظم المهن والحرف المكية بأعمال تتصل، في الأساس، بوظائف دينية كالتدريس في الحرم الشريف، أو تطويف الحجاج، وهذاما يؤكده أحمد علي، وهوأحد أبناء ذلك الجيل، بقوله: «أما العلم الصحيح الذي كان الناس يرغبون فيه

فهو الدين وما يتعلق بالدين، ومقره الحرم وحلقات دروسه التي ينظر إليها الخاص والعام بعين الإجلال والاحترام، وكان المتعلمون من الخاصة يتمنون ويدعون الله أن يروا أبناءهم علماء يدرسون في الحرم، وتكون لهم حلقة كبيرة مثل فلان وفلان»[٤١].

أدّت المضامين الفكرية التي روّجتها الثورة العربية الكبرى إلى نشوء جيل من الشبان الذين استهوتهم أفكارها السياسية، وبثت فيهم روحًا ثورية ستؤتي ثمارها بعد حين، وكان لتلك الأفكار والمؤسسات التربوية التي انتموا إليها، وبخاصة مدارس الفلاح التي تميزت بالتعليم المدني، سببًا في تكوين هذا الجيل الجديد من المثقفين في مكة المكرمة وجدة، الذي وجد أن صعوده التاريخي مرتبط بالثورة وفلسفتها، وبالأفكار التي تبثها صحيفة «القبلة» ،وكان ذلك كافيًا لإحداث تحول نوعي في السياق الثقافي والفكري، كان من نتائجه انفصال النخب الشابة عن أنماط الثقافة المسجدية التي تدور في فلك العلوم الإسلامية والعربية، والانجذاب إلى محيط التيارات السياسية والأدبية الذائعة في مواقع مختلفة من الوطن العربي ـ آنذاك ـ وبخاصة الفكر القومي، وبدأ واضحًا أن قاموسًا ثقافيًا جديدًا بدأ يطل على مكة المكرمة يغاير مفردات ثقافتها العتيدة من فقه ومناسك ولغة ونحو، لتحل محلها مفردات أخرى تنتمي إلى *عبدالرحمن الكواكبي* وكتابيه *طبائع الاستبداد* و*أم القرى*، وأنطون الجميّل، وأديب إسحاق وسليم سركيس ، وشبلي شميّل، ولطفي المنفلوطي، و إسماعيل مظهر، والمهجر الأمريكي[٤٢]، والتي كانت النواة التي ألفت الرعيل الأول من المثقفين في مكة المكرمة والحجاز عامة، والذي سينضج وعيه الأدبي والفكري في السنوات الأولى لدخول الملك عبدالعزيز الى الحجاز.

وعلى الرغم من أن الثورة العربية الكبرى يمّمت وجهها نحو الشمال ـ بلاد الشام على وجه التحديد ـ انشغلت بطموح الشريف حسين بن علي بالوصول إلى سدّة الخلافة، ومنازعاته الإقليمية، التي حالت دون أن يحدث تغيير في التعليم والمواصلات والصحافة، وما شهده عصره من توجس من التحديث' فإن الطليعة المثقفة التي انبثقت في مكة المكرمة وسائر مدن الحجاز ـ وبخاصة جدة والطائف ـ في مطلع حكم الملك عبد العزيز، رأت في الثورة العربية الكبرى العتبة التي ربطت الحجاز بالثقافة الحديثة، ولعل العودة إلى تقويم عدد من المثقفين المكيين لما أحدثته من أثر ثقافي يعطي ملمحًا عن قيمة ذلك التحول العميق الذي حصل آنذاك. فقد فاق أثرها في إيقاظ الحجازي ـ فيما يقول أحمد العربي ـ «و إذكاء مواهبه وشعوره أثرها في غيره من أبناء البلاد العربية الأخر»[٤٣]، وكانت رصاصة الثورة التي انطلقت من بطحاء مكة المكرمة ـ فيما يقول عبدالله عبدالجبار ـ حافزًا جديدًا قويًا باردًا لا عاطفة فيه، أصبح من بعض الوجوه عاطفة حارة..»[٤٤]، فالثورة الربية الكبرى ـ كما يقول أيضًا ـ «لم تكن.. ثورة سياسية وحسب، و إنما كانت كذلك هزة اجتماعية أحدثت في الحجاز هزة أدبية، و إن كانت متواضعة إلا أنها كانت ذات تأثير لا يستهان به من الناحية الفكرية اللغوية وأساليب التعبير وطرق التصوير.

و إذا كان أدباء فترة الانتقال قد ورثوا عن العهد التركي تركة أدبية مثقلة بالموضوعات التافهة والبلاغة العتيقة والمحسّنات البديعية البالية، وبخاصة السجع المتكلّف، فإن اتصالهم بكتّاب عصر الثورة عن كثب كالأستاذين فؤاد الخطيب ومحب الدين الخطيب ثم الكتاب العرب الآخرين عن طريق القراءة، وبخاصة أدباء مصر والشام، وعلى الأخص الأدباء المهجريين، قد زودهم بطاقة

فكرية جديدة وزاد أدبي جديد تفاعلا في نفوسهم مع روح الثورة العربية. وكان من نتيجة هذا التفاعل ميلاد الثورة الأدبية والثورة الفكرية، ثورة الجديد على القديم والحرية على التقليد»[٤٥]...

«أقدم بين يدي القارئ الكريم صفحة فكرية وجيزة من شعرالشبيبة الحجازية ونثرها لهذا العهد، ولأول مرة في التاريخ لهذه البلاد، بعد فترة طويلة وقرون كثيرة قضي بها سوء الطالع لهذه الأمة ولهذا الوطن أن يكون علم الأدب فيها غريبًا والأديب مبتذلًا طريد الأمراء وأعوانهم من الذين قالوا إنهم علماء.وكأن العلم عند القوم قشورمن الخلافات المذهبية والفروضات الفقهية وتعمق في فهم الخصومة القائمة والضرب المستمربين زيد وعمرو، وأما ما عدا ذلك من بقية العلوم الأدبية وغيرها فالغلو بها والانشغال بها عبث!

أما قرض الشعرورروايته والنظرفي كتب الأدب، فكان الاشتغال بها مما يليق والترفع عنها من الكرامة، فلم يكن للعلم دوريجد فيها الطالب المتعطش طلبته من العلم والأدب اللهم إلا مدارس ابتدائية ضيّق عليها الخناق، لا تتعدى حدًا محدودًا لها، و إلا كتاتيب بسيطة يفك فيها الطالب الحرف ثم يترك حبله على غاربه يشرّق أو يغرّب، ولم يكن يُدَّرس في المسجد الحرام إلا طرف من العلم يتلقاه أنماط من الأهلين والمجاورين على نية الفتوح والبركة لهم أو على نية العيش لمعلميهم. على ذلك نشأت جبل الشبيبة وعلى مثل ذلك درج آباؤنا والأجداد منذ ذلك العهد الذي تهدّم فيه بنيان العلم في هذا لابلد المقدس واندكّت فيه صروح الأدب والأدباء»[٤٦].

وكان الكتاب في صورته الجماعية إلماحًا إلى أن هذا التحول الذي طرأ على

لغة الكتابة، والرؤية الفكرية، هو تحول جيل بكامله، وحلًا فاصلًا بين مرحلة وأخرى، وترسيخًا لهموم مختلفة تنتمي إلى قاموس تمتلئ مفرداته بشحنات الأمة، والوطن، والوطنية، والدعوة إلى التحديث والعصرية، والرغبة في انتشال الحجاز من وهدته التي عاش فيها قرونًا متطاولة، والتوسل بمفاهيم فكرية وسياسية تنتمي إلى قيم الدولة الوطنية الحديثة وعصر القوميات كالأمة والوطنية والشعب، وهي بعض فيوض الفكر السياسي العربي في عصر النهضة.

وما إن يحل عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م حتى يصدر عن المكتبة الحجازية بمكة المكرمة كتاب *خواطر مصرحة*، لمحمد حسن عواد ..أحد أدباء جدة الشبان ـ ليحدث هذا الكتاب الذي وصفه أحد الأدباء المكيين بأنه «كان أشبه بالقنبلة حين قذفها إذ أحدث دويًا هائلًا في جميع طبقات الأمة لما حواه من نقد لم تألفه الأمة، وهذا الدوي كان منتظرًا لأن الأفكار الحجازية لم تكن تأهّلت بعد لأن تقابل أمثال ذلك»[٤٧]، وبالفعل كان ذلك الكتاب الذي افتتحه مؤلّفه باقتباسين أحدهما من القرآن الكريم، والآخر للكاتب اليساري المصري سلامة موسى قنبلة هزّت ما ألفه المجتمع من سكينة ودعة * ، وكان لتوسله بالروح الرومانسية المشبوبة أثرها في كتابه، والتي رأى فيها عبدالوهاب آشي، وهو يقدّم لكتاب زميله «أنجح سعي وأسرع نتيجة لأولئك الذين يريدون أن يحيوا رمام النفوس، ويحرّكوا جوامد الأفكار، وينطقوا صوامت الإحساس والوجدان... لهذه كلها نرى الشباب الحجازي المتأدّب إذا كتب للأمة فإنما يكتب بأقلام من حديد،

* - العالم الإسلامي كان بأجمعه بحاجة إلى تجديد، ولكن التجديد الحقيقي ينبغي أن ينطلق من جذور الأمة ومن هويتها وثقافتها. أما أن ينطلق من «القرآن» و«سلامة موسى»، فهذا تلفيق التقاطي، لا يؤدي إلى نهضة حقيقية، وهذا ما حدث عمليًا (ثقافتنا).

ومداد من الغاز الخانق على صحائف من نار»[٤٨].

ولم تكن الأوضاع الثقافية العامة في مكة المكرمة، حين صدر فيها كتاب *خواطر مصرحة* قد اختلفت عن الأنماط الثقافية المعتادة التي عرفت بها خلال قرون مضت، والتي كانت، حتى ذلك العهد، محتفظة بها، عاكسة بذلك تأصيلًا علميًا وثقافيًا لمدرسة مكية في العلوم الإسلامية والعربية، مركزها الأساسي الحرم الشريف، ولهذا كان صدور *خواطر مصرحة* في تلك الأثناء معبّرًا عن صراع ما بين موقعين ثقافيين واجتماعيين مختلفين: ثقافة مدنية حديثة رائدها الأدب الرومانسي والفكر الليبرالي، وثقافة دينية كانت محل نقد محمد حسن عواد وهدفًا لسهامه، وعبر لغة حادّة، هي بعض فيوض تأثر أدباء الحجاز برومانسية العقاد وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة، وكان واضحًا تأثر محمد حسن عواد بتلك العواصف الفكرية الحادة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، والتي كان من نتائجها انهيار أفكار وولادة أخرى، وبخاصة ما له صلة بالثقافة العربية والإسلامية القديمة التي كانت محل رهان من عدد من التيارات الفكرية التي وجدت في انهيار الدولة العثمانية علامة على انهيار البقية الباقية مما تمثله من رموز تتصل بالماضي العربي والإسلامي، ولعل مطالعة عدد من عنوانات مقالات ذلك الكتاب مؤشّر على تلك الروح المتأثرة بالرؤيات الفكرية التي شكل ملامحها الخطاب الاستشراقي، والتي وقع في حبائلها ومكائدها عدد من النخب الفكرية والأدبية في الثقافة العربية المعاصرة، بما تحمله من سجال مع المتدينين، أو نظرتها الدونية للغة العربية، أو تقزيمها للثقافة العربية القديمة، مقابلة بالثقافة الغربية، وهذا ما فعله محمد حسن عواد في نظرته الى البلاغة العربية التي لم يجدها في عدد من

المدونات العربية، بما فيها من شعرالمتنبي الذي كانت «ينبوعًا يحاول الانفجارفلا يستطيع»، والتي وجدها «في نظرات المنفلوطي عروسًا تزف ولكن بلاطبول»! ليجدها أخيرًا، «في كثيرمن شعروكتابة مسيحيي لبنان تسلس عن قيادها.ثم وجدتها في مترجمات هيغو وموليير وشكسبيروبايرون فقلت واهًا لمجد شعراء العرب!»[٤٩].

ولاتقف فصول الثقافة الحديثة في مكة المكرمة عند هذا الحد، فثمة معالم تجلّي المرايا الثقافية على تنوعها،وتشهد على تفاعلها،إبان تلك المرحلة، مع خطابات مختلفة، في تعميق أحدث الأفكار، سياسيًا: في المؤتمرالإسلامي الذي شهد جدلًا واسعًا حول مفاهيم الخلافة والدولة، وأدبيًا: في تعميق القيم والأشكال الأدبية الجديدة، والتي أخرجت مكة المكرمة من سكينتها التي طالما أشارإليها عدد من مثقفيها،لتصبح محل تجاذب عدد من الأفكاروالتيارات في الدين والقومية واللغة، وبصورة بالغة الجذرية لم تخف على بصيرة طه حسين، حينما رصد معالم الأدب في الجزيرة العربية في مقال له يعود ١٩٣٣م، حيث يقول:

«وأغرب من هذا أن دعوة إلى التجديد الفكري والأدبي قد ظهرت في الحجاز منذ أعوام بتأثيرما يكتبه المصريون والسوريون. وهذه الدعوة عنيفة جدًا، فهي ساخطة أشد السخط على كل قديم في الحجاز: على التعليم الديني والأدبي وعلى نظام الحكم وعلى الحياة الاجتماعية، وقوام هذه الدعوة أن الحجازيجب أن يحيا حياة الأوطان الحرة المستقلة وأن يحتفظ من قديمه بالدين واللغة ويأخذ عن الأوروبيين بعد ذلك ما استطاع، وأن يستفيد من إقبال المسلمين عليه للحج فلا يفني هو في المسلمين، وأن يعني أهله أشد العناية بالتعليم المدني وباللغتين الإنكليزية والفرنسية لأن إحداهما لغة الاقتصاد والتجارة والأخرى لغة العلم والأدب»[٥٠].

وبالفعل فإن هذا ما تشيرإليه صحافة تلك المرحلة، وبخاصة «أم القرى» و«صوت الحجاز»،وهي الصحف التي أسست في مكة المكرمة، والتي تعكس رغبة الأدباء والمثقفين إلى النهوض والتقدم، والأدهى رغبة الأجيال الناشئة في الانتساب إلى الثقافة الجديدة التي كانت أدبية الطابع، في وضع يجعلنا نشعربما أحدثته هذه الثقافة من تغييرعميق في المجتمع المكي، الذي كان،قبل ذلك بعقود، لا يرى العلم الصحيح فيما يقول أحمد علي ـإلا في «الدين وما يتعلق بالدين، ومقره الحرم وحلقات دروسه...» [٥١]،و إن كان ذلك كله لم يخرج بالثقافة في مكة المكرمة عن تأثيرها الروحي الذي لا يخفى في كتابة أبنائها.

الهوامش:

١ ـالسباعي، أحمد، *تاريخ مكة*، ط ٦ (نادي مكة الثقافة،١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص ١١٥ –١١٦ - ١٥٢.

٢ ـالجاسر، حمد،مقدمته لتخليصه لرحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي، (دارالرفاعي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ١١ - ١٢.

٣ ـلعل فهرست ابن خيرالإشبيلي خيرمن يعبرعن مكانة مكة وحرمها الشريف في تلقي العلوم والحصول على الإجازات من أبرزعلماء الأمة.

٤ ـالمحبي، *خلاصة الأثر*، ٣/٨٧،الردادي؛ *عائض، الشعرالحجازي في القرن الحادي عشرالهجري*، ١/١٠٥.

٥ ـالردادي،عائض، ١/١١٤.

٦ ـالردادي، عائض، ١/١١١/١١٢.

٧ ـالسباعي، أحمد، *تاريخ مكة*، ص ١٩٤.

٨ ـالسباعي، أحمد، المرجع السابق، ص ١٩٦.

٩ ـللتوسع، ينظر: هرخرونيه،سنوك، *صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري*، ترجمة على عودة الشيخ،(الرياض: دارالملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

١٠ ـابن جنيد،يحيى محمود، *الحياة الثقافية في مكة المكرمة في القرن التاسع عشرالميلادي*، (الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية ـكتاب الرياض ـ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م)، ص ٤٦ - ٤٩ .

١١ ـالهذاني،بندر، *المنهج التاريخي لمؤرخي مكة المكرمة في القرن الحادي عشرالهجري*، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م)؛ الهيلة،محمد الحبيب،*التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري الى القرن الثالث عشر*، (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٩٩٤م).

١٢ ـأورد عبدالوهاب أبو سليمان نماذج على تسامح فقهاء مكة المكرمة في كتابه *الحرم الشريف، الجامع والجامعة*، (نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤١٧هـ).

١٣ ـأبو سليمان، عبدالوهاب، ص ١٥ - ١٦.

١٤ ـأبو سليمان،عبد الوهاب،*الحرم الشريف، الجامع والجامعة*، ص ٧٩ ، ٨٠، ٨١.

١٥ ـطاشكندي،عباس،*الطباعة في المملكة العربية السعودية*، ص ٢٧.

١٦ ـابن جنيد،يحيى،*الحياة الثقافية*، ص ٥٥ - ٥٧.

١٧ ـالشامخ، محمد، *نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية*،(الرياض: دارالعلوم، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م) ص ١٥ - ١٦.

١٨ ـالضبيب، أحمد، *حركة إحياء التراث في الجزيرة العربية*،الدارة،(ربيع الأول ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص٥٣.

١٩ ـطاشكندي، عباس،المرجع السابق، ص ٤٢.

٢٠ ـأحصى عباس طاشكندي ٢٤٧ عنوانًا أخرجته المطبعة الميرية، منذ تأسيسها ،وحتى عام ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م.

٢١ ـمغربي،محمد علي،*أعلام الحجاز*، (جدة: منشورات تهامة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ٣٠٨.

٢٢ ـطاشكندي، عباس، ص ٨٥.

٢٣ ـالشامخ، محمد، *نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية*، ص ٢٢.

٢٤ ـالضيب، أحمد، *بواكيرالطباعة والمطبوعات في بلاد الحرمين الشريفين*،الرياض (مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص ٤٢.

٢٥ ـ*تاريخ مكة*،ص ٥٦٤- ٥٦٥.

٢٦ ـالسباعي،أحمد،*تاريخ مكة*، ص ٥٨٠.

٢٧ ـالسباعي، أحمد، *تاريخ مكة*،ص ٥٩٤.

٢٨ ـالشامخ، محمد ماتب الحي،(الرياض: دارالعلوم)، ص ١٠٨ - ١٠٨.

٢٩ ـالسباعي، أحمد، *تاريخ مكة*، ص ٥٦٠.

٣٠ ـموسى، سليمان،*الحركة العربية*،(بيروت، دارالنهار، ١٩٨٦م)، ص ٤٩.

٣١ ـموسى،سليمان،ص ٥١.

٣٢ ـموسى، سليمان،ص ٥٢- ٥٥.

٣٣ ـينظر: رسالة الشريف حسين إلى أخيه ناصر ـعضو الأعيان في إسطنبول ـحيث يبدو موقفه المتصلب إزاء هذا الموضوع. موسى، سليمان، ص ٥٨.

٣٤ .من ذلك المذكرة التي وجهها خمسة وثلاثون عضوًا عربيًا في مجلس المبعوثات إليه، إقرارًا بإمارته على مكة،واعترافًا برئاسته الدينية على جميع الأقطارالعربية.موسى،سليمان، ص ٥٧.

٣٥ .نصيف، حسين،ماضي *الحجازوحاضره*، القاهرة (مطبعة خضير، ١٣٤٩هـ)، ص ٧٠ - ٧١.

٣٦ .القبلة، ع ١٧٧، ٢١ رجب ١٣٣٦هـالدوري ،عبالعزيز، *التكوين التاريخي للأمة العربية*، ط ٣، (بيروت، مركزدراسات الوحدة العربية ١٩٨٦م)، ٢٧٤.

٣٧ .القبلة، ١٣٣٧/١/٤هـ، الدوري، عبدالعزيز، ص ٢٧٤.

٣٨ .ينظرالقائمة التي أعدها عباس طاشكندي، في كتابه: *الطباعة في المملكة العربية السعودية*.

٣٩ .السباعي،أحمد، تاريخ مكة،ص ٦٢٣.

٤٠ .عرب، محمد عمر، *التطورات التي سبقت نشوء الأدب في الحجاز*.الكتاب الفضي للمنهل،جدة، ١٩٦٠.

٤١ .علي، أحمد، *ذكريات*، (نادي الطائف الأدبي، ١٣٩٧هـ)، ص ٢٤ - ٢٥.

٤٢ .عبدالجبار، عبدالله،*التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية*، ٣٤/٢.

٤٣ .وحي الصحراء، ط ٢ (جدة: منشورات تهامة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، .صدرت طبعته الأولى عام ١٣٥٥هـص ١٢٥.

٤٤ .عبدالجبار، عبدالله، *التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية*، ٥/٢ (مطبوعة بالآلة الكاتبة) .

٤٥ .المرجع السابق، ٣٤/٢.

٤٦ .أدب الحجاز، ص ٣ - ٤.

٤٧ .غريال (محمد سعيد عبدالمقصود)، *الأدب الحجازي في أدواره التاريخية* ـ٣ ـ،(صوت الحجاز، ٢٣ جمادى الأولى ١٣٥٣هـ/٣ أغسطس ١٩٣٤م)، *المجموعة الكاملة لآثارالأديب السعودي محمد سعيد عبدالمقصود خوجة*، حسين عاتق الغريبي،(جدة: عبدالمقصود محمد سعيد خوجة، كتاب الإثنينية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص ٢٢٠.

٤٨ .*خواطرمصرحة*، ص ٦ - ٧.

٤٩ .ص ٢٢ - ٢٣.

٥٠ .*ألوان*،(القاهرة، دارالمعارف، ١٩٨٠م)،ص ٤٨.

٥١ .*ذكريات*، ص ٢٤.